مفدي زكريا

(ابن تومرت)

شاعر الثورة الجزائرية

تحت ظلال الزيتون

عاصمة الثقافة العربية

موفم للنشر

منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

07 / 07 14 01
الإيداع القانوني 2006 ـ 3220
ردمك 6 - 487 - 62 - 9961 - 978

© موفم للنشر ـ الجزائر 2007

الإهداء

إلى التي صنعت فكري، وغمرت روحي معرفة ونورا، وحقيقة وجمالا إلى الشجرة المباركة التي أضاء زيتها جوانب قلبي (وإن لم تمسسه نار) وصرخت في عروقي (نورا ونارا) يوم أن مستة نار...

إلى التي أقنعت جبروت الذرة العبره، أن العبقرية إذا شقت طريقها صعدا نحو السمو الأكبر جرحت الذرة في كبريائها، وأحالت الصغيرة ماردا عملاقا يحرق خطاه وازع الضمير للعمل على خير الإنسانية الهضيمة.

إلى الذي علم الإنسان العربي ما لم يعلم... وافهم دنيا المعسكرات والأحلاف، ما لم تكن تفهم...

إلى فتاة أحلامي، وأخصب مصادر إلهامي: تونس الحبيبة

إلى قائد الزحف العربي المظفر، ورائد الوحدة الناصعة الأصيلة

صديقي وأخي في الكفاح فخامة الرئيس الحبيب بورقيبة

أهدي قبسا من نور المشكاة «تحت ظلال الزيتون» بعبق بأسمى المشاعر من الأشقاء أرض الجزائر.

مفـــدي زكرياء في سطـــور

1908-1977

* هو الأستاذ مفدي زكرياء شاعر الثورة الجزائرية أيام معركة التحرير وشاعر المغرب العربي الكبير أيام معركة البناء والتشييد.

* ولد في 18 جوان 1913 ببني يزقن بواحات الجزائر، و تلقى علومه بمختلف المدارس و المعاهد التونسية ابتداء من مدرسة السلام و انتهاء بالمعهد الزيتوني.

* آمن بوحدة المغرب العربي الكبير في فجر شبابه، وما انفك يـــتغنى بهذه الوحدة منذ سنة 1925 إلى يوم وفاته ســـواء في مـــؤتمرات الطلبـــة و الندوات الأدبية، أو الاجتماعات السياسية.

* ساهم مساهمة فعالة في النشاط الأدبي و السياسي بالجزائر حيث كان أول أمين بحزب نجمة شمال إفريقيا الشمالية عام 1935، و دخـــل الـــسجن خمس مرات متوالية قضى مجموعها سبع سنوات آخرها عام 1956 حيـــث كان و لا يزال من أنشط مناضلي جبهة التحرير الوطني الجزائري.

* هو صاحب النشيد الوطني الجزائري الرسمي «قسمًا»، و سائر الأناشيد القومية الجزائرية كنشيد «فداء الجزائر» و«نشيد جيش التحرير» و«نشيد الطلاب» و«نشيد العمال» و«نشيد الشهداء» وغيرها، كما أنه صاحب «نشيد مؤتمر المصير» بتونس و«نشيد الاتحاد النسائي التونسي» و نشيد معركة بنزرت التاريخية.

* أسهم في النهضة الفكرية بتونس من أيام الدراسة إلى اليوم بمحاضرات ومقالات صحفية و أحاديث إذاعية.

* حامل لوسام الكفاءة الفكرية من الدرجة الأولى كراما من المرحوم جلالة محمد الخامس.

* هذا الدّيوان (تحت ظلال الزيتون) صورة صادقة عن مشاعره النبيلة نحو تونس التي ملكت عليه لبدء.

توفّي رحمه الله يوم الأربعاء 02 رمضان 1397 هـ الموافق لِـ 17 أوت 1977 م بتونس العاصمة و عمره تسعة و ستّون عامًا، نقل جثمانه إلى الجزائر و دفن بمسقط رأسه بني يزقن.

كلمة

- لست من يعني كثيرا بالمقدمات فيما ينشر من انتاج، فالمادة الخصبة الناضجة تقدم نفسها بنفسها، و الشّعر النابع من القلب- المشبوب بالمشاعر الصّادقة، المتجاوب مع الأحاسيس الحيّة، إنّما يفرض وجوده، ولن يضل -أبدا- طريقه إلى صميم المجتمع الواعي، ما دام القلب دليله،
- وديواني هذا « تحت ظلال الزيتون» وميض من خوالج جياشه، أخلصت فيها لضميري، وعقيدتي، في حبي لهذا البلد الأمين الذي صنع فكري فيما صنع، وانتزع إعجابـــي بما امتاز به من خلق وابداع وما فطر عليه من نبل عاطفة، وسمو روح، ونصاعة ضمير،
- قد يعتبره بعض « ذوي العُقد» أو (النفّاثين في العقد) سفرا لا يعدو أن يكون ديوان امداح، وباقايا زهور تنثر على الأقدام، وجوابي لهؤلاء وأولئك : أنه كل ما تظنون -في كبرياء واعتزاز- ما دامت في (حصانة) من إيماني وإيمان (كلماتي)، وما دامت نبضات قلبي ترن شاخصة في كل حرف مما قلت ومما سأقول،،، وما دام هذا يجعلني أسمو بمديحي إلى حيّز (الوصف الصادق) وأمرّ مرّ الكرام على دنيا (الزوتين الباهت) إلى دنيا (الشعراء الناس)،،
- إن المثل العليا، و الكمالات، و القيم، وما إلى ذلك،،، معانٍ سامية غير أنها (في حد ذاتها) كلمات جامدة، عديمة المفعول ما لم تظفر

بنفوس مؤمنة، قادرة على الذوبان في مفاهيمها صادقة في إشاعة مفعولها وتعميم إشراقتها في تصرفات الإنسان الظلوم الجهول،،، وإذا كان الأمر كذلك،، فمن أحق بالحمد والتمجيد؟،، هل الكلمات،،، أم الإنسان الذي نفخ فيها وعالج بها مئاسي الحياة؟؟،، ما من شك في أنّ الله خلق الفضل والخير كما خلق الإنسان وما من شك في صحة ما قيل (من لا يشكر الناس، لا يشكر الله)،،، !

قالوا: مدحت رجال الحكم، قلت لهم
من كان للشعب خلاقا، مدحناه
أو كان للوحدة الكبرى بمغربنا
يبني –على البر والتقوى– عشقناه
لا يجحد الفضل، إلا من به سفه
ولا النهى، غير من ساءت نواياه
فكيف نبخل بالذكر الجميل على
من ظل يمدحه عن فعله، الله؟!

- من أجل تلك القيم –كالكلمات– ومن أجلها كعلاج للإنسان في كف امهر طبيب أخلص في معالجة الإنسان، ومن أجل شعب استجاب وعلوج فدبت في أوصاله الصحة والعافية والطمأنينة والهناء من أجل ذلك وحده أكبرت شعب تونس فعشقته، وأكبرت « الحبيب » فأحببته وقدسته، وحسبي في ذلك أنني أرضيت ضميري وكنت أصدق ترجمان لمشاعر –الأحرار من بني أمي– أشقائكم المعترفين بأفضالكم: أحرار أرض المليون شهيد،،، الجزائر التي لا تنسى الجميل،،،

• وإذا كانت عقيدتي -التوحيد- فإن وحدة مغربنا الكبير -كرصيد للوحدة الكبرى- لا تختلف قط عن عقيدتي في وحدانية الله، لذلك تراني أشدو فوق كل غصن من مغربنا الكبير، وأمجد كل من يعمل على خيره وخير العرب أجمعين، وليست تهمني في ذلك (الأوضاع والمذاهب السياسية) مهما اتحدت أو تقاربت، أو تباعدت،،، ما دمت أو من أن (الوحدانية) صمام الأمان لمستقبل مصيرها وانسجام اهدافها، فما النظم والمناهج إلا تجارب محترمة، وإن التوت طرقها حينا فسوف لا تصمد طويلا أمام القاعدة العلمية الصحيحة (أقرب مسافة بين نقطتين،، خط مستقيم!،) والخط المستقيم واضح في تقاسيم الوحدة المنشودة، لذلك تراني لا أفرق بين أحد من بناة مغربنا الكبير فأحببت الجميع، و مدحت الجميع، دفعا للحيرة والشك، كما فعل صاحبنا القائل:

قد تحيرت أحسب الثغر عقدا
لسليمي ، ، وأحسب العقد ثغرا
فلثمت الجميع قطعا لشكي
وكذا فعل كل من يتحرى، ، !

• ونزولا عند قاعدة التحري هذه قلت:

أنت ألهمتني، وما زلت طفلا
أيها الشعر، آية التوحيد

وتغنيـــت منـــذ فجـــر شـــبابي
بالتحـام القـوى ودعـم الجهـود
لم أزل صـادحا علـى كـل غـصن
من رُبـى المغـرب الكـبير العتيـد
عاشقا كل مـا بـه، كـل مـن فيـه
ومـــن فوقـــه ومـــن بـــاللحود
مغربي جنـة ، ،، أفي جنـة اللـــ
ـــه سـوى كـل صـالح وسـعيد ؟
وإذا ما مـدحت قـومي ،، أليـسوا
من دمي، في تراب أرض جدودي؟

ذلك التراب الذي أقول فيه:

أرض بهـا مـن جمـال الله أخيلـه
فهل لها مـن جنـان الخلـد اشـباه؟
ومـــوطن نتفـــانى في محبتّـــه
أو كـان يعبـد مخلـوق ،،، عبـدناه

وبعد،،، فإني لا أرجو —كما يرجو الكثيرون— أن يحضى ديواني هذا بالرضى ما دمت راضيا عنه أنا، والشعر الحق-هو الذي يرضي صانعه قبل أن يرضي الناس،، والمطرب الموهوب هو الذى (يتواجد) في ذات نفسه بتلاحينه، ويعتبر حكمه صحيحا قبل أن ينتظر حكم السامعين،

وقبل و بعد،،، فإنه لا يسعني أن أختم كلمتي هذه دون أن أسجل امتناني و تقديري لصديقي الفاضل الأديب الكبير السيد كاتب الدولة للثقافة الأستاذ الشاذلي القليبـــي الذي يسُّر لي مهمة طبع هذا الديوان – المتواضع – على يد مصلحة النشر الموفقة التي يدير شؤونها رجل من أهل الكفاءات النادرة بهذا البلد الصاعد، صديقنا الدكتور الحبيب ابن الخوجه، مع رعيل من رجالات الأدب، مؤملين أن تتعزز بهم «دنيا الكتاب» و أن تلمع «دولة الفكر» من جديد بهذه الديار الكريمة، على ضوء توجيهات الرئيس «الأديب» فخامة الحبيب بورقيبة قائد الشعب و رائد الفكر، أمدّ الله في حياته لخير الإنسان أينما كان.

مفدي زكرياء

طربت أمس هناء

نظمت في رثاء أبي القاسم الشابي ونشرت في العالم الأدبي بتونس 1934 وأنشدت بحفل التأبين الذي أقامه بالجزائر النادي الإسلامي الذي كان يرأسه المرحوم الأستاذ عبد الرحمان يسن

طربت أمس هناء[1]
واليوم أبكي عزاء
تلك الدنا عودتني
خداعها، والرياء
حتى رأيت سواء
بكاءها والغناء
«وام دفر»[2] عجوز
تباشر الفحشاء.. !
أضاعت الرشد لما
أضاعت الحرفاء..

1- إشارة إلى أن الشاعر كان يشارك في مؤتمر طلبة شمال افريقيا المسلمين بأيام قلائل قبل وفاة الشابي وألقى قصيدا بالخلدونية يهني فيه تونس.

2- لقب يطلق على الدنيا الدنيئة

كم أجزلت لي رضاها
وبـادلتني (الـولاء)
وكـم أرتـني وجهـا
مهلـــلا وضـــاء
ونـــاولتني ثغـــرا
لثمـت فيـه الرجـاء
حتى إذا رمت وصلا
وجئت أرجـو الوفـاء
رأيتهـا وهـي تنـسا
ب حيّـــة رقطـــاء...
وكم لهـا مـن أهـاب
ثغـري بـه البـسطاء
حتـــى إذا لمـــسوها
تبـــدلت حربـــاء
يا ناعي الشعر مهـلاً
كفـى الـبلاد بـلاء
في كـل يـوم حـداد
يبقـى الـبلاد خـلاء
في كـل يـوم مـصاب
يبكـي العيـون دمـاء
وأكبـــد مزقتهـــا
يـــد البلـــى أشـــاء

وأنفـــس ضـــارعات
حرى تعـاني الـشقاء
في كـــل بيـــت أنـــين
يفتّـــــت الأحـــــشاء
وكـــم بهـــا زفـــرات
ألهـبن هـــذا الفـضاء
أمـــا كفاهـــا صـــليا
أمـــا كفـــى برحـــاء؟؟
مـــآتم تلـــو أخـــرى
تـذرو القلـوب هبـاء
رحماك يا رب يـا مـن
خلقتنـــــا ضـــــعفاء
لم نـــدرع في الرزايـــا
إليـــك إلا الـــدعاء
ويا بني «تك»[1] مهـلا
لا تركبـــوا الخـــيلاء
كنـــا لكـــم شـــرفاء
كونـوا لنـا شـرفاء...
يا خالد الذكر فاهنـأ
لقـــد بلغـــت البقـــاء

1- تلك إشارة لفرنسا بصيغة الاحتقار.

نم في الضلوع وخذ هـ
ــذه القلـوب غطـاء
بنــت فيهــا عروشًــا
لمـن تركـت البنـاء ؟
تبكيك زهر القـوافي
فأفرغ عليهـا العـزاء
قد كنـت فيهـا أمينـا
تقـــدّس الأمنـــاء
تروي الحديث عن القـ
ـلب صـادقا لا هـراء
فلـــم تقلـــد لبيـــدا
فيـــه ولا الخنـــساء
فكــان شــعرك حــرا
وكنـــت فيـــه ثنـــاء
والشعر أن كان لغوا
فنـــاد فيـــه العفـــاء
يتلــى غــدا فيلقّــى
تـــصدية ومكـــاء
ســئمت دهــرك لمــا
عانيـــت داء عيـــاء
فجئت للموت ترجو
علــى يديــه الــشفاء

ناديت بالشعر عزارا

ئـيلا، فلبـى النـداء

ولـو درى أنهـا رو

ح شـاعر، مـا أسـاء...

كفى ذوي الشعر بالشعر

أن ينـالوا البقـاء... !

لو سامح المـوت قومـا

لـسامح الـشعراء... !

نم هانئـا مطمئنـا

واطرح هنـاك العنـاء

هذا رثـائي وان كنـ

ـت لا أجيـد الرثـاء

ولـدت هـشا طروبـا

ومـا ألفـت البكـاء[1]

فاقبل من الأخت عنّي

تحيـة وولاء

واسجد لربك شكرا

ونـل هنـاك الجـزاك

1- كان الشاعر في مسالمة مع الدهر لم يدخل السجون بعد و لم يذق أنواع التعذيب والا لتغيرت نظرته للحياة على انه حقا لم يعرف البكاء في أشد أيام المحنة.

في ذكرى الشابي[1]

حيّا ستبقى وان لفتك أكفان

وخالدا رغم ما قلوا وما شانوا

دنياك يا شاعر الآلام عامرة

بذات نفسك، لا كنا، ولا كانوا...

لم تُلق شعرك في إرضاء عاطفة

ولا ضعفت، وكم في ضعفهم خانوا..

ولا تملقت تستجدي أخا كرم

وكم تملق بالأشعار إخوان!

1- للشاعر قصة طريفة في نظم هذه المقطوعة، وذلك أنه كان أنذاك في زيارة لباريس وصادف وجوده برنامجا لذكرى الشابي كان أعده المرحوم محمد العريبي (ابن تومرت) الذي كان موظفا بإذاعة باريس فهتف لصديقه الشاعر مفدي زكرياء ليستقدمه لدار الإذاعة لأمر ذي أهمية كبرى فانطلق الشاعر إلى دار الإذاعة وبوغت عند وصوله بالعريبي ينتظره في مدرج الاستديوهات فأدخله غرفة وأغلق دونه بابها قائلا: لا خروج لك من هذا السجن إلا بعد نظم مقطوعة تسجل الآن في برنامج ذكرى الشابي فما وسع الشاعر إلا أن يشتري حريته بهذه المقطوعة الجريئة.

لهفي على الشعر أضحى عند بعضهم

بضاعة ما لها عز ولا شان

هذا يتاجر بالأشعار محترفا

وذاك غايته بالشعر نيشان

هذي الدعارة في الآداب رائجة

بناتها اليوم . أشعار وألحان

ترى الميوعة والإسفاف يجمعها

بخسة الروح تقطيع وأوزان

فأصبح الشّعر «خنثى» مثل قائله

لا الشعر شعر، ولا الفنان فنان

وكل شعب غدا بالشعر مرتزقًا

فحظه من حياة العز خسران

يا شاعر الخلد دعهم في غوايتهم

وخالد الشعر ذرهم حيثما كانوا

عوضت بالخلد خيرا من صداقتهم

كفاك بالخلد أصحاب واخلدن

المارد الأسمر

قيلت في مؤتمر الشعوب الافريقية المنعقد بترنس في 25 جانفي (كانون الثاني) سنة 1960 بدار الشغالين.

أصـدع رفيعـا، أيّهـا «الـمارد»
واصعد سـرِيعا أيّهـا الـصاعد
وحطـم الأغـلال، واقـذف بهـا
إلى لظى.. ! يصهر بها الجاحـد
وسـطر اسـتقلال إفريقيـا
يـا أيهـا ذا المحفـل الحاشـد !!
وادفـع بهـا للخلـد، جياشـة
يزحف بهـا، جهادهـا الخالـد
وابعـث بهـا نحـو البقـآ طاقـة
يُصْعَقْ بها المستعمر الحاقـد !
ووحـد الأهـداف، في عـالم[1]
بات به، لا يفلـح الواحـد !!

1 - في التسجيل الصوتي : في الزمن.

فـالظلم، مـا زال علـى حالـه
والغدر، في هذا الورى سـائد
والغـرب، لا ينفـك مـستعمرا
ثعبانــه، في أرضــنا راصــد
والقــوم، لا حــد لأطمــاعهم
تاريخهم، عن مكـرهم شـاهد
إن شــعوبا فرقــت أمرهــا
سرعان ما يصطادها الـصائد
وأمــة لم تتخــذ حــذرها
يكيـدها في أرضـها الكائـد
إفريقيـا، أنـت عـروس الـدنى
والوطن، المنبعـث، الـصامد[1]
«نضارك الأسود» حـشو الثـرى
في أمــره، يحــسدك الحاســد
ســيري إلى التحريــر، في عــزة
والحـزم درع، و الحجـى قائـد
وفاوضــي الأقــوام، في حكمــة
ما خاب من تفكـيره، الرائـد

1- في التسجيل الصوتي : الصاعد.